ضربات معول

للدكتور عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب

في العام الخامس من الهجرة نكب الشرك على التوحيد ، وائتمر الباطل بالحق ، وكاد الشر للخير . تقاسم رءوس الضلالة ليغزون المدينة وليقتلن هذه الجماعة الناشئة ، وليبطلن تلك الدعوة الجديدة .

مشى يهود خيبر إلى قادة قريش ، وحرضوا القبائل الضاربة غربيّ نجد وشرقيّ خيبر ، قبائلَ غطفان . فاجتمعت كلمة هؤلاء وهؤلاء على غزو المدينة والبطش بالمسلمين .

ورأى المسلمون أنهم لا قبل لهم بهذه الأحزاب ، لا يستطيعون دفع قريش وغطفان وألافهما ، لا قبل لهم بهذه الجموع الحاشدة من قيس عيلان وقريش ومَن انحاز إليهم ، هذه الجموع التي قال فيها حُيَيّ بن أخطب أحد زعماء اليهود الذين ألّبوا الناس على المسلمين ، حين جاء إلى كعب بن أسد القرظي رئيس بني قريظة وهم بقية اليهود في المدينة فقال له يحرضه على نقض عهد المسلمين :

« ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدهر وبحر طام . جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نَقَمَى إلى جانب أُحُد ؛ قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه » .

أهمّ المسلمين هؤلاء الأعداء ، فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق يصد الجيوش عن المدينة . فخطّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضع المخافة من المدينة . وذلك شمالها حيث يطمع العدو في دخولها . وأما الجوانب الأخرى فكانت ممتنعة على الغُزاة بجبالها ونخيلها . خط الرسول الخندق من أُجُم الشيخين إلى المذاد[1] وقطّعه بين الصحابة أربعين ذراعا لكل عشرة رجال . وجدّ المسلمون ليفرغوا من الخندق قبل أن يدهمهم العدو . والرسول يشرف عليهم يشاركهم أحياناً في عملهم وارتجازهم .

— ٢ —

وبينا عشرة من الصحب يحفرون قسمهم من الخندق لقّوا صخرة قاسية أُرِتَت في معاولهم ولم تؤثر فيها المعاول . وكرهوا أن يعدلوا عنها فيحيدوا عما خطّه الرسول لهم . فقالوا لسلمان الفارسي أحد هؤلاء العشرة اصعد فانظر ماذا يأمر رسول الله . فرقى سلمان فقال :

« يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا . خرجت صخرة بيضاء من الخندق مَرْوة فكسرت حديدنا وشقّت علينا حتى ما نُحيك فيها قليلا أو كثيراً . فمُرنا فيها بأمرك . فإنا لا نحب أن نجاوز خطك » .

قال راوي القصة عمرو بن عوف المُزَنيّ :

فهبط رسول الله مع سلمان في الخندق . ورقينا نحن التسعة على شفة الخندق . فأخذ رسول الله المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها[2] حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم . فكبّر رسول الله تكبير فتح . وكبر المسلمون . ثم ضربها رسول الله الثانية فصدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، فكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمون . ثم ضربها رسول الله الثالثة فكسرها وبرقت برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم . فكبر رسول الله وكبر المسلمون . ثم أخذ بيده سلمان فرقى . فقال سلمان بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط . فالتفت رسول الله إلى القوم ، فقال هل رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا نعم يا رسول الله — بأبينا أنت وأمنا — قد رأيناك تضرب فيخرج

(١) لم يكن الخندق محيطا بالمدينة كما يتوهم بعض الكتاب .
(٢) اللابة الحرة . لابتا المدينة حرتاها الغربية والشرقية .

برق كالولوج فرأيناك تكبر فنكبر . ولا نرى شيئاً غير ذلك[1] » .

قال رسول الله : أما الأولى فقد أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى ؛ والثانية أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم ؛ والثالثة أضاءت لى منها قصور صنعاء[2] . « فأبشروا يبلغهم النصر . وأبشروا يبلغهم النصر . وأبشروا يبلغهم النصر » .

— ٣ —

إن هذا الشيء عجاب : جماعة قليلة لم تستطع الدفع بأيديها وأسلحتها فاعتصمت بالخندق تتقى به عدواً أكثر عدداً وأعظم عُدّة ؛ جماعة قليلة جاهدة يدهمها عدو حاقد مُحنَق قد صمم على أن يستأصلها . وليس لهذه الجماعة رِدء على الأرض ولا مدد . وهى تكدح لحفر الخندق وتكلّ أيديها فينزل قائدها يعينها ويواسيها ، على حين أحاط بها الخوف « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » .

وفى هذه المخاوف ، وعلى هذه الحال يتحدث هذا القائد بفتح المشرق والمغرب ! ما أعظمها دعوى ، وما أعجبها أمنية !

كذلك قال الذين رأوا عدداً قليلا من الناس يحفر أرضاً ليتقى عدوه ، ولم يروا ما وراء هذه الأجسام القليلة من معان كثيرة . قالوا :

«ألا تعجبون! يحدثكم ويُمنّيكم ، ويعدكم الباطل . يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرُزوا » .

« وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .

أجل من يرى هذه الجماعة القليلة تدرأ عن نفسها بهذه الحفيرة يعجب ألا يشغلها ضعفها ، والهول الذى دهمها ، والخوف الذى أحاط بها ، عن التحدث بالفتح فتح المشرق والمغرب . إنها لإحدى الكُبَر .

(١) الطبرى : غزوة الخندق .

(٢) مختصر من الطبري . وفى رواية بن هشام ، أن الأولى فتحت بها صنعاء ، والثانية فتح بها المشرق ، والثالثة فتح بها الشام والمغرب .

— ٤ —

لا لا . لم تكن فى المدينة جماعة قليلة ولكن كان الحق يصاول الباطل ، والخير يدفع الشر ، والإيمان ينازل الكفر ، والتوحيد يواثب الشرك ، والعزم يقابل الخورَ ، والاجتماع يثبت للافتراق ، والصبر يعضد الجزع ، واليقين يتحدّى الشك . كانت معان تقاتل معانى . وما ضرّ المعنى الظافرَ فى سنة الله قلةُ أنصاره على الأرض ؛ ولا نفع المعنى المنهزم فى قانون الله كثرةُ سواده فى الناس .

وما كان مسلمو الخندق يحادّون قريشاً وغطفان ويهود وحدهم بل كانوا يحادّون الأمم كلها . لقد انقسم العالم يومئذ فريقين : أهل المدينة الذين يحفرون الخندق ، ومَن خارج المدينة فى جزيرة العرب وفى غير الجزيرة من أقطار الأرض كلها . لقد كان هذا الخندق فاصلا بين جماعتين : جماعة قليلة تحتضن حقاً وليداً ، وتاريخاً جديداً ، وتلتفّ حول عقيدة وشريعة وخلق ، وبين سواد الأمم كلها يموجون فى باطلهم ، ويسيرون فى مواكب للجهالة والإثم ، والعدوان والظلم ، ويحوطون أوثاناً من الحجر أو أصناماً من البشر .

وما كان العرب إلا العدوّ الأدنى ، عرف هذه الجماعة فحذرها ، وكرهها فآذاها ، ثم أشفق منها فائتمر بها وعزم ليأخذَنّ عليها الطريق ، وليمنعنّها أن تنتشر على الأرض ، وليفرقنّ جمعها ، ويبدّدنّ نظامها ، ويبطلنّ دعوتها .

وكانت أمم الأرض كلها من وراء هؤلاء العرب ، حرباً على هذه الجماعة لو قاربوها وخالطوها . وما كان العرب المشركون فى حرب العرب المسلمين إلا طلائع جيش للباطل جنوده أهل الأرض قاطبة . كذلكم كان هذا الخندق المحفور بين المسلمين وأعدائهم حدّاً بين عصر وعصر ، وفاصلا بين تاريخ وتاريخ .

ولكن العرب الكثيرين من قريش وغطفان ويهود ، وهم طلائع جيوش الأرض كلها ، لم يكونوا فى أنفسهم ، وفيما انطوت عليه هذه الأنفس من معان ، أقوى ولا أولى بالظفر من هذه الجماعة القليلة . دع العدد القليل ، والعدد الكثير ، وانظر هذه المعانى تتقاتل ، تجد التوحيد يحارب الوثنية ، والفضيلة تقاتل الرذيلة ،

والنظام يدافع الفوضى ؛ نجد الخير والشر ، والعدل والجور ، والحرية والعبودية ، والحق والباطل فى معترك . فانظر لأى هؤلاء العاقبة !

وهل كان المعول فى يد رسول الله ، وضربات المعول فى هذا الصخر الأصم ، وهذه البرقات التى ماج بها الهواء كالمصباح فى بيت مظلم ، إلا الحق يصادم الباطل ، والإيمان يصاول الشرك ، والنور يمزق الظلام ، والحق العزيز المصمم يكسر ما يعترضه ، ويدمغ مايصده . كانت هذه الضربات رموزاً لما وراءها من جهاد وجلاد ، وكان هذا الضوء بياناً لما يتصل به من هدى ، وكانت عين الرسول العزمُ المصمم ، وكان كل خير وحق وفضيلة فى النفس التى تبطش بهذه اليد .

كانت هذه المعانى كالشرارة الصغيرة تؤجج ما شاء الله من نار ونور ، والآحاد فى الأعداد تستوعب كل ما يدركه العدّ ، وكالفكرة الأولى تفتح للعقل طريقاً مديداً ومذهباً جديداً ، وكحروف الهجاء تنتظم لغات العالم ، وكقرص الشمس ينمر العالمين نوراً .

— ٥ —

كذلك سخر الذين سمعوا قصة محمد ومعوله ، وعرفوا حديث القائد المحصور يبشر بفتح العالم! ولكن كثيراً من هؤلاء الساخرين عاشوا حتى سمعوا صدى هذه الضربات فى اليرموك والقادسية وما تلاهما شرقاً وغرباً ، وأبصروا برقها يصعق يزدجرد وهرقل وجنودهما ، وكل جند للباطل على ظهر الأرض .

ورأوا المعانى التى مثلتها هذه الضربات وقد ثارت بالباطل غير رقيقة ، وزلزلت الظلم غير مشفقة ، وانتشرت فى الشرق والمغرب كالسحاب يجلجل مضيئاً صاعقاً ممطراً منبتاً .

عاش الساخرون عشرسنين فرأوا جزيرة العرب تدين لصاحب المعول ، ورأوا فارس والروم تخرّ لضرباته ، والشرق والمغرب يستضيء بهذه البرقات . وعلموا يقيناً أن محمداً صدقهم حينما وعدهم فتح العالم وهو قائم فى الخندق يحطم بمعوله الصخرة التى أعيت أصحابه .

عبد الوهاب عزام

المختار

يناير ١٩٤٦

[إقرأ أمتع ما يكتب وخير ما ينشر]

خطر على إيران

كاتب وُلد فى روسيا وتعلم فى البلجيك وقضى سنين فى أوربا الوسطى والبلقان يبسط ما وراء اضطراب الحالة فى إيران من وجوه النزاع السياسى بين الدول .

* * *

أمة تطافح الأمية

بيان عجيب عن الوسائل النافعة التى يتوسل بها نصف أمة يسعى جاهداً ليزيل الأمية عن النصف الآخر .

* * *

عيون تبصر من جديد

بيان عن عملية عجيبة ، ومصرف تودع فيه أجزاء العيون لكى تستعمل حين الحاجة إليها ، فترد البصر على العميان .

* * *

حكومة عالمية أو حرب عالمى

أما وقد قضت القنبلة الذرية على أساليب الحرب كما عهدناها فماذا ينبغى أن نصنع لنتجنب فوضى عالمية ؟

* * *

أهمية المجوبة فى المقاطير الطبية

سلاح يسله الطب ضد التيفود والكوليرا وربما السل والجذام — عقار يجدى حيث لا تجدى عقاقير السلفا والبنسلين

* * *

باب الكتب **بوليفار** المحرر الاعظم

تحول من شاب غنى عابث إلى مجاهد فى سبيل الحرية البشرية وإطلاق أمم أمريكا الجنوبية من قيود الاستعمار الإسبانى — قصة تهم جميع الأحرار الوطنيين وتلهمهم .

* * *

٢٥ مقالة — ١٤٤ صفحة

ومع كل نسخة

توزع مجاناً نفيجة بارؤلواد امام ١٩٤٦